المحاضرة الرابعة المجامع الأدبية: البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد

وجدت في التراث العربي عدة مجامع أدبية عنيت بجمع الأدب وانتقاء مادته من أشعار وأخبار وصايا وخطب وحكم وأمثال، وقد شُغل بها طلبة العلم والأدب وعكفوا عليها ينهلون منها ويغترفون، وهي كثيرة لعلّ من أبرزها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وكتاب زهر الآداب للحصري...وسنحاول التعرف على أبرزها وأكثرها شهرة وتأثيرا.

أولاً: البيان والتبيين للجاحظ:

ترجمة الجاحظ:

الجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بم محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، ولد بالبصرة وتوفي فيها (159هـ - 255هـ) كان قصير القامة جهم الوجه ذميم الخلقة لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه أي نتوءهما على أن خفة روحه وظرف حديثه وحسن عشرته وفكاهته الطبيعة، كانت تستر دمامة خلقه وتجعل الناس يقبلون على معاشرته للاستماع بأحاديثه والتفكه بنكته الظريفة.

أقبل الجاحظ على طلب العلم فأخذ الرواية والشعر والأدب عن أبي عبيدة معمر بن المثنى والأصمعي وأبوزيد بن أوس الأنصاري وخلف الأحمر وأبو عمرو الشيباني وأبو الحسن الأخفش، وأخذ الحديث والفقه عن أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي ويزيد بن هارون وثمامة بن الأشرس. وأخذ الكلام والاعتزال عن النظام (إبراهيم بن سيار) ومويس بن عمران وضرار بن عمرو الكندي وبشر بن المعتمر الهلالي وغيرهم...

تميز الجاحظ بمعرفته الواسعة بعلوم عصره وثقافته، اتصل بالخليفة المأمون الذي دعاه بعدما وصلته كتبه فصدّره كتاب الرسائل غير أنه لم يقم فيه طويلاً حتى استعفى منه.

من أبرز مؤلفاته: البيان والتبيين، الحيوان، البخلاء، المحاسن والأضداد بالإضافة إلى عدد من الرسائل التي ألفها.

كتاب البيان والتبيين:

هو من أشهر كتب الجاحظ وأعظمها، وقد ألفه وأهداه إلى القاضي أحمد بن داود، وكان ذلك في آخر حياته، حين علت به السن وقعد به المرض، عُدّ مرجعا لمن جاء بعده في بابه ولذلك كثر ثناء العلماء عليه يقول أبوهلال العسكري في كتابه الصناعتين عند كلامه عن كتب البلاغة: «وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وهو لعمري كثير الفوائد جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة، والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة. إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتثرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير» كما قال فيه ابن رشيق القيرواني في العمدة «وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ – وهو علامة وقته- الجهد وصنع كتابا لا يُبلغ جودة وفضلاً، ثم ادعى إحاطته بهذا الفن، لكثرته، وأن كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجلّ»، كما رفع ابن خلدون من شأن البيان والتبيين وأعلى من قدره عندما قال: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان، وكتاب النوادر لأبي علي القالي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها، وفروع عنها».

قد سار الجاحظ في كتابه على سجيته وعادته فلم يتقيد بنظام محكم يرتسمه، ولا يلتزم نهجا مستقيما يحذوه، ينتقل فيه من باب إلى باب ويكثر الاستطراد فكتابه كما يقول شوقي ضيف «ليس دراسة علمية منهجية تتناول هذه الأمور بالنقد والتحليل والتقنين بل عمد إلى ذكر الآراء المختلفة والاستشهاد بأمثلة من التراث في الشعر والخطابة والمناظرة، وغلب على الجاحظ عامل الاستطراد والتنقل من فكرة إلى أخرى والخلط بين الجد والسخرية يضل القارئ مشدودا إلى الكتاب لا يمله وستثقله» وقد حدد محققه عبد السلام هارون مباحثه بقوله:

«ونحن نستطيع أن نرد مباحث الكتاب وقضاياه إلى الضروب التالية:

1-البيان والبلاغة 2- القواعد البلاغية 3- القول في مذهب الوسط 4- الخطابة 5- الشعر 6- الأسجاع 7- نماذج من الرسائل والوصايا 8- طائفة من كلام النساك والقصاص وأخبرهم 9- عرض لبعض كلام النوكى والحمقى ونوادرهم 10- ضروب من الاختيارات البلاغية»

طبعات البيان والتبيين:

يورد عبد السلام هارون محقق الكتاب الطبعات السابقة له ويذكرها مرتبة كما يلي:

1-النشرة الأولى في مجلدين في 222صفحة و190 صفحة وذلك بالمطبعة العلمية من سنة 1311-1313، وعنى بها حسن أفندي الفاكهاني إلى نهاية الكراسة السابعة من الجزء الأول، وباقي الكتاب بعناية الشيخ محمد الزهري الغمراوي، وهذه النشرة مجردة من الضبط، وبها تعليقات يسيرة في الجزء الأول فقط.

2- النشرة الثانية في ثلاث مجلدات في 218 صفحة 196 صفحة، 236 صفحة. وذلك في مطبعة الفتوح ومطبعة الجمالية سنة 1332هـ، أشرف عليها الأستاذ الكبير السيد محب الدين الخطيب.

3- النشرة الثالثة والرابعة صنع الأستاذ الجليل حسن السندوبي 1345هـ -1351هـ وكل منهما في ثلاث مجلدات، وتمتاز الرابعة بكثرة التعليقات والتراجم، وألحق بهما بعض الفهارس.

كما طبع كتاب عنوانه (منتخبات من البيان والتبيين) يقع في ثمانين صفحة وذلك بمطبعة الجوائب 1301هـ ثم بمطبعة الرغائب 1328هـ، وكتاب آخر بعنوان (مختار البيان والتبيين) باعتناء الأدبين: خليل بيدس وشريف النشاشيبي وهو في 248 صفحة طبع بمطبعة بيت المقدس سنة1933م

ويعقب شوقي ضيف على تحقيقات الكتاب وطبعاته بقوله: «وقد طبع الكتاب أكثر من مرة وقام بتحقيقه أكثر من محقق ولكن الطبعة المعتمدة الوافية هي الطبعة التي نشرها الأستاذ عبد السلام هارون في مصر سنة 1968م».

ثانياً: الكامل للمبرد:

ترجمة المبرد:

أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبرد، ولد بالبصرة سنة 210هـ وتوفي سنة 286هـ عرف بتمكنه في اللغة والنحو والتصريف وملك ناصية الكتابة كما قرض الشعر ووصف بأنه «كان حسن المحاضرة فصيحا بليغا مليح الأخبار ثقة فيما يرويه كثير النوادر فيه ظرافة ولباقة»، تتلمذ المبرد على أفاضل علماء عصره من اللغويين والنحاة مثل ابن عمر الجرمي وأبي حاتم السجستاني وابن عثمان المازني، كما عاصر أبي العباس ثعلب الكوفي، وتردد على الجاحظ وأخذ عنه، من أشهر تلاميذه الاخفش الأصغر، من مؤلفاته: المقتضب وهو كتاب في النحو والمدخل إلى الإعراب والتصريف والإشتقاق وإعراب القرآن والمذكر والمؤنث والمقصور والممدود، والقوافي، ومعنى كتاب سيبويه، والرد على كتاب سيبويه، وطبقات النحويين البصريين وأخبارهم...

كتاب الكامل:

يكاد يشبه كتاب الكامل للمبرد كتاب البيان والتبيين للجاحظ غير أنه «يفترق عنه في غلبة قضايا النحو عليه على حين لم يول الجاحظ هذا الجانب اهتمامه، زمن هنا ساد الكتاب بعض الجفاف العلمي خلافا العلمي لما نراه عند الجاحظ من خفة روح وميل إلى الدعابة، وما ذلك إلا لأن المبرد عني بدقائق المحو واللغة من خلال ما يورد من نصوص» ويصفه شوقي ضيف بقوله: «وإذا ذكر المبرد يذكر للتو كتابه الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف إذ يأتي على قمة مؤلفاته شهرة وقبولاً لدى القراء. ومثلما يتضح من عنوان الكتاب نجده كتابا جامعا لمجالات متعددة ومتنوعة تدور في أساسها حول اللغة والنحو والاشتقاق الصرفي للألفاظ، إلا أن الكتاب تسجيل جامع للأخبار والشعر والاجتماع والنوادر والخطب والحديث النبوي والآيات القرآنية، ويوجز المؤلف مضمون الكتاب فيقول: هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين منثور وشعر ومرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة»

منهجـــه:

سبق وأسلفانا أن كتاب الكامل للمبرد يشبه في منهجه كتاب البيان والتبيين للجاحظ، حيث سار فيه على نهج علماء عصره وكتبة زمانه فقد غلب عليه الخلط والاستطراد والتوسع والانتقال من فكرة إلى أخرى، فعندما يورد مثلاً أو خبرا وشعرا، تراه يستطرد في سرد مناسبته التاريخية وما يتعلق بها من أحداث وأخبار ونوادر وقصص، ثم يعرج على شرح اللغة والتعليق على جوانبها الفنية والجمالية، ليعود إلى تحليل الجوانب النحوية والصرفية والتاريخية وغيرها.

طبعات الكامل:

طبع الكامل مرات عديد أولها في مدينة لبزيغ في ألمانيا وهي ذات فهارس قيمة، ثم طبع في أسطنبول وبعد ذلك في مصر حيث تككت طباعته. وقد عني بشرحه والتعليق عليه سيد المرصفي فأسماه (رغبة الآمال من كتاب الكامل) جمع فيه بين المتن والشرح على صعيد واحد وبلغ ثمانية مجلدات. كما قام بتحقيقه أكثر من محقق ومن أفضل الطبعات الطبعة التي قام بتحقيقها الاستاذان زكي مبارك وأحمد شاكر التي صدرت في القاهرة سنة 1355هـ.